

رسائل تلغرافية

(١٩)

آيَاتُ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ «الآيَةُ الْأُولَى»

كتبه

الدكتور ابن الكيال

«افتتاحية الآيات»

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]

وقال الصحابي الجليل الحَبْرُ العالم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه:
«التفسير على أربعة أنحاء:

- ١- فتفسير لا يُعذر أحد في فهمه .
- ٢- وتفسير تعرفه العرب من لغاتها .
- ٣- وتفسير يعلمه الراسخون في العلم .
- ٤- وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ . اهـ

«تفسير القرآن العظيم» (٦/٢)

للحافظ ابن كثير

وقال الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].
روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥٧٩٤) عن الشعبي في تفسير هذه الآية
قال:

«بيان للناس من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١، ٢]،

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]،

﴿الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]، ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]،

[٢٥]، ثم أما بعد:

فهذه بفضل الله ومنه والذي لا تتم الصالحات إلا به سبحانه، طائفة من الآيات الكريمة التي تحتاج إلى إلقاء الضوء عليها، أُفرد لكل آية منها ما يستبين به المعنى، ويتضح به المغزى، ويستقيم به المبنى، وينجلي به الفحوى، حتى نكون على بينة من أمرنا، وتفسير لشئوننا، والله الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

• قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٨١﴾﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الزخرف: ٨١، ٨٢].

قال أبو عبد الله القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦ / ٨٧، ٨٨):

«قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾: اختلف العلماء في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسدي: المعنى: ما كان للرحمن ولد، ف(إن) بمعنى ما، ويكون الكلام على هذا تاماً ثم تبتدىء: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي: الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولده، والوقف على ﴿الْعَبِيدِ﴾ تاماً.

وقيل: المعنى: قل يا محمد إن ثبت لله ولدٌ فأنا أول من يعبد ولده، ولكن يستحيل أن يكون له ولد، وهو كما تقول لمن تُناظره: إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقد، وهذا مبالغة في الاستبعاد لهذا الشيء، أي: لا سبيل إلى اعتقاده، وهذا ترقيق في الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، والمعنى على هذا: فأنا أول العابدين لذلك الولد؛ لأن تعظيم الولد تعظيم للوالد.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده على أنه لا ولده.

وقال السدي أيضاً: المعنى: لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولداً، ولكن لا ينبغي ذلك.

قال المهدوي: ف(إن) على هذه الأقوال للشرط، وهو الأجود، وهو اختيار الطبري؛ لأن كونها بمعنى ما يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى.

وقيل: إن معنى: ﴿الْعَبِيدِ﴾: الأنفين من ذلك.

وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان: العبيد، وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني: (فأنا أول العبيد)، بغير ألف، يقال: عَبِدَ يَعْبُدُ عَبْدًا، (بالتحريك): إِذَا أَنْفَ وَغَضِبَ فَهُوَ عَبْدٌ، والاسم العَبْدَةُ، مثل الأنفة.

قال الجوهري: وقال أبو عمرو: قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِ﴾ من الأنف والغضب، وقاله الكسائي والقُتَيْبِيُّ، حكاها الماورديّ عنهما .

وقال الهروي: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِ﴾: قيل هو من عَبْدٍ يَعْبُدُ؛ أي: من الأنفين .

وقال ابن عرفة: إِنَّمَا يُقَالُ عَبْدٌ يَعْبُدُ فَهُوَ عَبْدٌ، وَقَلَّمَا يُقَالُ عَبْدٌ، وَالْقُرْآنُ لَا يَأْتِي بِالْقَلِيلِ مِنَ اللَّغَةِ وَلَا الشَّاذِ، وَلَكِنِ الْمَعْنَى: فَأَنَا أَوْلُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ ﷻ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا وَلَدَ لَهُ .

وروي أن امرأة دخلت على زوجها فولدت منه لسته أشهر، فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه فأمر برجمها، فقال له علي: قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]، وقال في آية أخرى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، فوالله ما عبد عثمان أن بعث إليها تردُّ [رواه الطبري في «تفسيره» (٣١٠٦٠)].

قال عبد الله بن وهب: يعني: ما استنكف ولا أنف [يعني: ولا استكبر].

وقال ابن الأعرابي: ﴿فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي: الغضاب الأنفين .

وقيل: أي: أنا أول من يعبد علي الوحدانية مخالفاً لكم .

وقال أبو عبيدة: ﴿فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِ﴾ معناه: الجاحدين؛ وحكي: عبدي حقي: أي: جحدني .

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا: «وُلْد» بضم الواو وإسكان اللام .

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ أَلْسَمَاتٍ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: تنزيهاً له وتقديساً؛ نزه نفسه سبحانه عن كل ما يقتضي الحدوث، وأمر النبي ﷺ بالتنزيه .

قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: عما يقولون من الكذب . اهـ

وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ١٥٤ ، ١٥٥):

«يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي: لو فرض هذا لعبده على ذلك لأنني عبدٌ من عبیده، مطيع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته لو فرض كان هذا، ولكن ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضًا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقال أبو صخر: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد لا نظير له ولا كفاء له، فلا ولد له». اهـ

قلت: قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

قال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٢٠١ ، ٢٠٢):

«أي: مُبْدِعُ السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق، كما قال مُجاهد والسُّدِّي، ومنه سُمِّيت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف.

قوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ أي: كيف يكون له ولد ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾؟ أي: والولد إنما يكون مُتَوَلِّدًا عن شيئين متناسبين، والله لا يُناسبه ولا يُشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مریم: ٨٨، ٨٩] [يعني: شيئًا عظيمًا جَلَلًا، كما قال ابن عباس].

قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه؟ وهو الذي لا نظير له، فأتى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. اهـ

وقال السعدي في «تفسيره» (ص ٧٧٠):

«قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ لذلك الولد؛ لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمر المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك وأشدّهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر فهم أول الناس تركاً له وبُعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد، وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أول من عبده ولم يسبقه إليه المشركون.

● ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله: إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها عقلاً ونقلاً. اهـ

قلت: وروى البخاري في كتاب تفسير القرآن من «صحيحه» بعد حديث (٤٨١٩): «قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ قال: ﴿أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾؛ أي: ما كان فأنا أول الآنفين، ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ الجاحدين. اهـ

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٨/٦٤٦،

:٦٤٧)

«وأخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «يقول لم

يكن للرحمن ولد»، ومن طريق سعيد عن قتادة قال: «هذه كلمة في كلام العرب، إن كان للرحمن ولد؛ أي: أن ذلك لم يكن»، ومن طريق زيد بن أسلم قال: «هذا معروف من قول العرب: إن كان هذا الأمر قط»؛ أي: ما كان، ومن طريق السدي: (إن) بمعنى (لو)، أي: لو كان للرحمن ولد كنت أول من عبده بذلك لكن لا ولد له، ورجحه الطبري.

وقال أبو عبيدة: إن معنى ما في قول، والفاء بمعنى الواو؛ أي: ما كان للرحمن ولد وأنا أول العابدين.

وقال آخرون: معناه: إن كان للرحمن في قولكم ولد فأنا أول العابدين؛ أي: أول الكافرين بذلك والجاحدين لما قلتهم، والعابدين من عبِد بكسر الباء يَعْبَد بفتحها، قال الشاعر:

أولئك قومي هجوني هجوتهم وأعبِد أن أهجو كليبًا بدارم
أي: أمتنع. اهـ

قلت: هذا آخر ما ذكر من كلام المفسرين من أهل التفسير واللغة والحديث في هذه الآية، وما فيها من معاني، وما ذكرته وأوردته من توضيح الآية بآيات مشابهة لها، وبيّنت مرادها أيضًا، ليكتمل لك المعنى المقصود من هذه الآية؛ لأن هذه الآية مُجملة تحتاج إلى تبين، ومشكلة تحتاج إلى تفسير، ومتشابهة يجب حملها على المحكم؛ حتى يُعلم مراد الله، وهذا منهج أهل الحق، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد روى البخاري في «صحيحه» (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة رضي الله عنها

قالت : تلا رسول الله ﷺ : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيتم الذي يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» .

ولذلك قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٦/٢) :

«قال ابن عباس رضي الله عنهما : التفسير على أربعة أنحاء : فتفسير لا يُعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ ، ويروى هذا القول عن عائشة ، وعروة ، وأبي الشعثاء ، وأبي نَهِيك ، وغيرهم» . اهـ

قلت : وعليه فهذه الآية من آل عمران هي الآية الثانية - بإذن الله تعالى - في سلسلة «آيات تحتاج إلى بيان» ، وسيأتي القول فيها ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

كتبه

الدكتور عيد بن أبي السعود الكيال

دكتوراه من كلية الشريعة الإسلامية

جامعة الأزهر بالقاهرة